

الشريف الإدريسي

وكتابه

نزصة المنتتتات فك اختراق الأفق



عالم وكتاب

بقلم الدكتور : انور عبد العليم

نشأته وحياته

ذلك هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف باسم ، الشريف الإدريسي . ولد ببلدة سبته (Cuesta) من ثغور المغرب في بيت ملك ودين .

تلقى الصبي تعليمه على الطريقة الشائعة في المغرب على عصره وهي حفظ القرآن الكريم والمتون وأشهر القصائد ثم انتقل إلى قرطبة بالأندلس لإتمام دراسته على أساتذتها المشهورين وتخصص في الجغرافيا والطب . وقد كانت الأندلس في ذلك الوقت من ممالك المغرب .

كان الإدريسي ولوعاً بالأسفار منذ الصغر فقبل إنه قام بسلسلة من الأسفار ولما يزل في السادسة عشرة من عمره : فطاف ببلاد الأندلس وتجول في موانئ البحر المتوسط . ثم زار مصر والشام وآسيا الصغرى وسنة ثمانية عشر عاماً . كما زار سواحل المحيط الأطلسي المعروفة على وقته .

بعد ان استولى روجر الأول ملك النورمان على جزيرة صقلية عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) بعد حروب طويلة ومناوشات لأهلها من البيزنطيين وقتن داخلية انتهى حكم المسلمين لها والذي دام (٢٦٦) سنة على وجه التحديد . وفي عهد روجر الثاني الذي كان مولعاً بالعلوم . ويعلم الجغرافيا بالذات . كانت دعوته للشريف محمد الإدريسي من أجل الإقامة في صقلية . واستجاب الإدريسي لتلك الدعوة وقام في الجزيرة .

نزصة المشتاق في اختراق الأفق

يقول الإدريسي في سبب تأليفه لهذا السفر الجغرافي الممتع : إن الملك روجر الثاني أحب ان يعرف بلاده ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً ..

رحالة عربي ، وعالم

جيل من علماء

الجغرافيا ، عاش في

القرن السادس الهجري

(الثاني عشر الميلادي)

قضى أغلب حياته في بلاط

الملك روجر الثاني ملك

صقلية مكتباً على الدرس

والبحث حتى أخرج

للعالم موسوعة قيمة في

علم البلدان سماها

« نزصة المشتاق في

اختراق الأفق » لا تزال

تشغل بال العلماء

والمفكرين حتى وقتنا

هذا .. ■■

وما يخصها من البحار والخلجان مع معرفة غيرها من البلاد والاطار في الاقاليم السبعة التي اتفق عليها المتعلمون واثبتتها في الفاتر المؤلفون من أمثال المسعودي والبيهاني ومحمد الحوقلي البغدادي . واليعقوبي ... إلخ .

ولذلك فقد انتخب الإدريسي أناساً يتقن بهم ويعتبرهم إلى اقاليم الشرق والغرب والشمال والجنوب ومعهم مصورون ليصوروا ما يشاهدونه عياناً وامرهم بالتصحيح والتحصيص والاستيعاب . وكان هو نفسه يناقشهم ويحصص اقاليمهم ويقارن اشكالهم ثم يثبتها . كما اهتم الإدريسي كذلك بتدوين الاخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية الاقاليم المعروفة . فكان بذلك من اول من لفتن إلى ايراد بعثات الكشوف العلمي كما نعرفها اليوم إلى المناطق النائية أو المجهولة .

ويعتبر الإدريسي بهذا العمل أيضاً اول جغرافي يقوم بمشروع علمي كبير يشمل جميع اقطار المعمورة بما فيها شمال أوروبا وبلاد الفرنج بعد ان كانت اعمال الجغرافيين العرب تهتم بالعلم الإسلامي وحده .

وقد تضمن الكتاب وصف البلاد ومواقعها والأرض وتضاريسها وبحارها وانهارها وغلطاتها وتجارتها من صادرات وواردات ويسمعيها ، الإدريسي ، التجارات . إلى جانب العجائب التي تنسب إليها أو تذكر عنها ومكانها من الاقاليم والسبعة واحوال اهلها وهنئلتهم ومدابهم وزيمهم ولبغاتهم . فجاه بذلك معبراً إلى حد كبير من احوال الأرض المعمورة وقت تأليفه سنة ٥٤٨هـ .

الأقاليم السبعة

درج أكثر الجغرافيين العرب على تقسيم العالم إلى سبعة اقاليم مناخية على شكل احزمة اقلية تبدأ من خط الاستواء وترتب متوازية من الجنوب إلى الشمال . وقد اتبع الإدريسي التقسيم نفسه إلا انه جعل الاقاليم تبدأ من المغرب بدلاً من المشرق أي تبدأ من بحر الظلمات وجعل الإقليم الأول يبدأ من خط الاستواء إلى خط عرض ٢٢ شمالاً (مدار السرطان) واشتمل كل إقليم من الستة السابقة على ست درجات وبذلك ينتهي الإقليم السابع عند درجة



■ الإدريسي يشرح تفاصيل
كرته الأرضية الفضية
للملك روجر الثاني .. ■

٥٩ شمالاً . وقد اُضيف إليه الإدريسي خمس درجات أخرى فاصبحت نهاية هذا الإقليم هي درجة ٦٤ شمالاً . ومن هذا الخط إلى القطب غير مسكون بسبب البرودة . كما اعتبر الإدريسي المنطقة التي تمتد جنوب خط الاستواء هي الأخرى غير مسكونة بسبب الحرارة .

خارطصات الإدريسي

وضح الإدريسي كتابه بسبعين خريطة للعالم المعروف على وقته تبين مواقع المدن والبحار والجبال والأنهار . وقد أحصيت أعداد المدن التي وردت على خرائطه فوجدت (٢٠٦٤) اسماً منها (٣٥٦) مدينة بأفريقيا ، (٧٤٠) مدينة بأوروبا ، (٩٥٩) مدينة بأسيا .

وقد استخدم الإدريسي في عمل هذه الخرائط لوحاً عليه خطوط الطول والعرض سماه ، لوح الترسيم ، أنبت عليه مواقع المدن والمعالم الجغرافية . وكان يستخدم الفرجار وادوات أخرى في رسوماته إلى جانب معرفته بالجدول الفلكية واستخدام الاسطرلاب واعتماده أيضاً على المشاهدة والمعاينة . وبهذا العمل استطاع الإدريسي أن ينقل علم الخرائط (الكروتوجرافيا) من الاهتمام بملكية الإسلام وحدها إلى الاهتمام بالعالم كله ، ولذا يطلق على خرائط الإدريسي اسم ، اطلس العالم ، بحق . هذا وقد استعان الإدريسي على إنجاز بعض خرائطه وخاصة عن البحر المتوسط بالخرائط الملاحية المعروفة باسم ، مرشد الموانئ ، أو ، البورتولان ، ، Portulan .

كرة أرضية من الفضة

ويعد أن أتم الإدريسي الخرائط السبعين المصغلة للأقاليم الأرض السابق ذكرها قام بصنع كرة من الفضة للأرض وضع عليها مواقع البلدان والمدن والجبال والبحار والأنهار . ويذكر هو نفسه أن كمية الفضة التي استخدمت في صنعها بلغت أربعمئة رطل بالرومي في كل رطل منها مائة درهم . ويذكر عالم إيطالي مقدار الفضة التي استخدمت في صنع مثل هذه الكرة بما زنته (٤٤٨٠٠) درهم (نحو ١٥٠ كيلوجراماً) . ولم تكن هذه الكرة أول كرة فضية جغرافية فقد سبقه في ذلك عبد الرحمن

مدرسة الاسكندر القديمة) ، وتضيف دائرة المعارف الفرنسية بان كتاب الإدريسي هو أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب .. وما يحتويه من الوصف الدقيق يجعله اعظم وثيقة جغرافية من القرون الوسطى

هذا وقد عارض ابن خلدون نظرية الإدريسي القائلة بخلو المنطقة الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء من العمران لقرط الحر وبشاركه في ذلك ابن رشد (المتوفى عام ٥٩٥هـ) الذي يقول : إن النصف الجنوبي للأرض موافق تمام الموافقة لنصفها الشمالي . كما انتقد ابو الفدا (المتوفى عام ٧٣٣هـ) الإدريسي لعدم ذكره الأطوال والعروض . والأرجح أن الإدريسي كان يبنيها على ، لوح الترسيم ، ولكن لا يضعها في الخرائط الصغيرة .

تحقيق جغرافية الإدريسي

طبع كتاب ، نزهة المشتاق ، للإدريسي لأول مرة في فلورنسة بإيطاليا عام ١٥٩٢م وتعد هذه الطبعة من أقدم المطبوعات الأوروبية بالحروف العربية ، ثم ظهرت بعدها ترجمات كثيرة ومختصرة باللغات الأوروبية المختلفة .

وقد استرعت المعلومات التي وردت عن دول أوروبا وغيرها في كتاب الإدريسي نظر علمائها فقاموا بدراسات كثيرة حولها ، ومنها ما نشره علماء الألمان تحت عنوان ، الفريفيقا في كتاب الإدريسي ، الذي صدر عام ١٧٩٦م وما نشره الإسبان عن بلادهم عام ١٨٨٥م أو ما نشر عن إيطاليا وصقلية وعن وضع مدينة ترينستا . وكذلك ما كتبه المستشرقون عن النمسا وروسيا وعن البلقان والدانوب وما ورد عن روسيا وتجارتها في كتاب الإدريسي ، وحتى المؤلمون من فنلندا والسويد واهل صقلية خاصة اهتموا بتحقيق ما ورد عن بلادهم في هذا الكتاب ، كالشجاعة والحرية والتكرم ، والنساء المتحفلات ، بل بنهم شعب يختلف اختلافاً كبيراً . وحتى المؤلمون من إيطاليا . كما قام المؤرخ السعودي حمد الجاسر بتحقيق الأسماء التي وردت في كتاب الإدريسي خاصة بجزيرة العرب .

الصوفي عالم الفلك الشهير الذي صنع كرة فضية لقطب السماء ، كما صنع البيروني كرة أخرى للأرض في القرن الخامس الهجري : وعن هذه الكرة الفضية صنع الإدريسي خريطة العالم المشهورة وصدر بها كتابه ، وفيها تبين خطوط العرض على شكل دائري وليست خطوطاً مستقيمة مما يرجح أنها مأخوذة من الكرة الفضية للعالم . وفي هذه الخريطة تبين سواحل البحر الأبيض المتوسط أقرب للواقع من الخرائط السابقة للجغرافيين العرب ، كما أن الدقيق في هذه الخريطة يرى الجزر التي أنشأها الإدريسي في المحيط الأطلسي ولم يبنيها احد من قبله مما يدل على علمه بها ويسواحل المحيط جنوبي مراكش . ويهذه المناسبة يذكر الإدريسي قصة الإخوة المغرورين في كتابه وهي من المحاولات الملاحية العربية لاستكشاف المحيط الأطلسي المعروف على وقته ببحر الظلمات : وقد وردت هذه القصة غير الإدريسي من المؤلفين القدامى مثل : المسعودي وابو حامد الغرناطي والبكري والقزويني .

جغرافية الإدريسي في نظر العلماء

يقول الدكتور حسين مؤنس في تعليقه على قيمة كتاب الإدريسي ، نزهة المشتاق : إن هذا العمل يمثل القمة التي وصل إليها علم الجغرافية في الشرق والغرب على حد سواء . فقد أخذ من علم اليونان خلاصة ما فيه . واخذ عن اصحاب مدرسة الجغرافية الفلكية زبدة آرائهم وطور صناعة الخرائطو الأطلس واعتبرها اساس علم الجغرافية وانتقل باطلس الإسلام إلى اطلس العالم . ويشارك مؤنس في هذا الرأي العالم الإيطالي أماري ، الذي يقول : . . . إن عمل الإدريسي يحتل مكان الصدارة بين كل ما ألف الناس في الجغرافية في العصور الوسطى .

اما العالم الفرنسي رينو رينوا (فيقول عن الإدريسي : . إنه استرأبوا العرب) (استرأبوا Strabo عالم يوناني جغرافي ف عظيم الشأن من